من النيل ... الى الرافدين

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

حينما قيل لى فى وزارة المعارف : إنك ممن اختيروا لانتدابهم للتـدريس فى مدارس العراق ، أحسست أن واجبا يناديني ويطلب التلبية مهما كانت فجأة النقلة ووعثاء السفر ولوعة الفرقة للأهل والوطن . . . تحقيقاً للثقـة العراقية فى السمعة المصرية التى رفع الله ذكرها فى الشرق العربى الاسلامى ، ووفاء لناشئة العراق ببعض ما لأجدادهم على العقلية العربية العامة من دَين المجد والدين والعلم ... وإيغالا بالجسم فى صميم الشرق ... وملأً للنفس من روحه الذى أومن بسره وسحره . . وتوثيقا للعلائق بين البلدان العربية التى ما يبزغ فجر يوم جـديد إلا وفيه أمل مشرق بوحدتها التى يرسم القلم الأعلى حدودها ، وينسج الزمان بنودها ، ويصنع جنودها

* * *

وانطلق الجسم من حدود الأرض التى له فيها تاريخ وأطوار . . إلى الأرض التى للروح والعقل فيها أشواق وأوطار ! فقد عاشا فى ميراثها ، وقبسا من هداها للجنان واللسان ، واعتزا بفتوح أقلامها وسيوفها ، فهما منها على غير نُكْـر

واستدبرت السـفينة شاطىء الوطن الذى فى ترابه أبى ، وعلى ترابه أمى ، فأحسـت شعور الانفصال له وقدة على كبدى!

وسارت الفلك واحتواها الماء الذى قامت على عبريه بواكير الحضارات ، وذابت فى عبابه دولات ، فقرأناه ككلمة خالدة فى التاريخ ، وعبرناه كقطرة فى محيط الطبيعة

وأقبل الليل ونحن على موج نرى جهاد السـفينة فيه ، والتقاء الظلام به ، وإشراق النجوم عليه ، فاذا القلب خافق صريع بسحر هذه الأكوان الثـلاثة التى فى كل منها محراب لعبادة الجمال الأعلى

وتنفس الصبح على صفحة البحر فاذا لون من بهجة الحياة يشيع فى النفس فتود لو أن الفـلك والفُـلك وقفا فلا يريمـان ! ولاح حاجب الشمس من صوب فلسطين الثائرة ضد البطش والدس ، فاذا بالعيون تشخص والخيال يطوف فى بطون الوديان وقنن الجبال ، فلا يرى إلا ثائرا رابضاً وراء صخرة ، أو طائراً يقذف « بالبَيْـض » مصارعَ ، أو شِلوا فى فم ذئب ، أو عينا فى منقار طير ، أو طراداً عنيفاً بين قوة جبارة تعتمد على حذق الجديد من أساليب الحرب ، وبين مقاومة صلبة فدائية تعتمد على الحق وامداد الايمان ؛ فسألنا الشمس أم الحياة أن تشرق بالأمل على قلوب أبناء عمومتنا ، وأن تنضح مضاجع الشهداء بالشعاع المسكوب !

ثم أوفت بنا السفينة الى بيروت وقد مال ميزان النهار الى الغروب ، فلاحت « الحراء » فى سفح لبنان كغادة نائمة فى حضن جبار . فوذعنا البحر واستجممنا قليلاً ، ثم اجتزنا لبنان فى طريق كسير الأفعى فلم نر منه غـير جماله الناثم ، وعهدى به منذ ثلاث سنين فى صحوة النهار ، أرض الفتنة والسحر

لبنان والخلد اختـراع الله لم يوسم بأجل منهما ملكوته

ونزلنا دمشق عرش أميـة الفاتحة الماهدة لدولات العرب طريق الحضارة والاسـتقرار فى الوطن الكبير ، فما رأينا منها إلا كما يرى النظر الطائر من مدينة تتثاءب لهجعة الليل . وما هى إلا بقية من سواد قضيناها فى فندق أمية حتى غدونا مصبحين مسرعين الى سيارات الصحراء . . وهكذا خرجنا من الفيحاء من غير أن نرى أفراحها ومباهجها لاسترداد حريتها واستقبال وفدها ، ومن غـير أن نحج الى مناسك جهادها وأعلام تاريخها

* * *

فلما جاوزنا أرباض المدينة ، وابتدأت صفرة الصحراء تطغى على خضرة الزرع ، أخذت أجمع نفسى وأرهف حسى لأستقبل المجهول الذى طالما تاقت الروح إلى اختراق غيوبه وهتك حجابه حتى ترى ما فيه من صور الصمت والهول والوحشة ، ونستلهم سماءه بعض المعانى التى فتقت ألسنة آبائنا بهذه الألفاظ البدوية الواعية لما أتت به الحضارات والمترجمة عن خلجات النفس ودقائق الأحاسيس

وهنا ابتدأ شعور مفاجىء لا تاريخ له فى قلبى ، فحملق البصر وتفرس فى ذلك الرحب ليرى ظلال الأجناد والأحداث التى قلب بها القـدر أوضاع الأرض بأيدى محمد وأبى بكر وعمر ، وطغيان الموجات العربية فى فترات التاريخ ، وولادة الجزيرة ،

واحتضان العراق والشام ومصر لما تلد ؛ ثم انحسرت هذه النظرة الأولى وارتدت تستنشد اللسان قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع !

* * *

ثم احتدمت الهاجرة ، والتهب الهواء ، والتمع السراب ، وبرزت الصحراء الحمراء عارية تحت عين الشمس ، ونحن فيها « كركب من الجن في زي ناس » فوق مركب « يملأ الآفاق صوتاً وصدى » فتصطف له أرواح الصحراء ترى ، في عجب ، سحر الحياة الجديدة !

وفي خطفة من خطفات الروح تلفت القلب صوب الجنوب فرأى المدينتين الغريقتين في أمواج الرمال تتحديان بصمتهما وعزلتهما ضجة الدنيا بالشهوات ، وسمارها بالآفات ، فحييتهما تحية القدوم على أقرب الحدود لها ، وأخذت الطمأنينة والسلام لنفسي منهما . . .

وفي مغرب الشمس وافينا « الرطبة » أول محطة عراقية ، فكان أول صوت رن في آذاننا صوت الحاكي يغني أغاني من « دموع الحب » في مقهى هناك وقد التف حوله السُّمّار في إنصات وطرب . فقلنا ها هي ذي مصر تسبقنا إلى العراق ، فلا وحشة ولا اغتراب . ثم وجدنا من البشاشة لنا والأنس بنا ما أنسانا أننا في صحراء تبعد عن مصر بأربعين ساعة بالوسائل السريعة !

وما غشي الليل وحبك الظلام حتى واصلنا السير فكنا في الصحراء كسر في ضمير حليم ! وجعلنا نسرح الطرف من خلال زجاج السيارة وقد غشيه الغبار فلا نرى غير نجوم وهنانة سأمانة من طول الوقوف على هذا الديموم

وجاءت سكرة النوم فهمدت الأجساد ونام كل «على نفسه» في مجلسه ، واستراحت المقل من التصويب والتصعيد في الأفق البعيد ، وهكذا نمنا على دوي الرحى . . . ولم يوقظنا إلا وقوفها في « الرمادي » في الهزيع الأخير ... فألممنا بها للتأشير على جوازات السفر . . . ثم وصل ما انقطع . . . اطراد السير والنوم حتى نرد بغداد مع الصباح . .

* * *

« هذه هي بغداد أيها الركب ؟ » هكذا قال الصبح الوليد . . . فسحت جفوني ، وجعلت أتلفت من شمالي ويميني لأرى مدخل دار السلام . . . المدينة التي احتضنت تاج مكة ويثرب ودمشق وأثينا وروما والمدائن والاسكندرية ، وزاوجت بين ألوانه ، ومزجت ثقافاته حتى رأت الدنيا من تفاعلها عالما جديداً غريباً . . . !

المدينة التي اضطلعت بالوصاية على ميراث الدين والعلم في زمن الجهل فربا في أيدي بنيها الممثلين لأجناس الناس وأديانهم وألوانهم ، فجمعوا خلاصة ما في الانسانية من تسامح وتلاق على المعنى الموحد والرأي المجتمع

المدينة التي كان الحج اليها واجبا على من كان يريد أن يتملى من دنيا القرون الوسطى في عظمة ملوكها وبطولة قوادها وفحولة علمائها وبلاغة صناع الكلام بها وضجة سوامرها بالأنشاد ، ورنين الكؤوس ، وضحك المجان ، وعزف القيان . . .

ومهما يكن من عبث الزمان بها وتقلب الأحداث عليها ، وتبدل المشاهد فيها ، فان أطياف الماضي لا تزال تخايل أمام العيون التي تعرفت اليها في دنيا الكتب وصحائف الآثار . والذين يجدون في أنفسهم قدرة على ذكرى الأضواء والألوان لا يستطيعون أن يمروا على تراب كتراب بغداد ، وقد ضم بين معادنه أشعة سقطت من أمجاد تاريخهم وعرش دينهم وعلمهم . . دون أن يتفرسوا بين طياته ، ونحن قلوبهم الى الالتصاق بذراته !

* * *

وبعد . فان ما رأيناه من حفاوة إخواننا العراقيين حكومة وشعبا بنا ، وتقديرهم الجميل لجهود المصريين في المعاونة على تنفيذ سياسة الانشاء والتعمير ، وثقتهم فيهم حتى لقد أسلموا إليهم أعز شيء في الدولة وهو نفوس الناشئين ، ووقوفهم على الدقيق والجليل من شؤون مصر . . وامتلاء دورهم ونواديهم بأغاني مصر في المذياع والحاكي . . . كل أولئك مما يجعل الأمل يوشك أن يكون يقيناً بأن الشرق العربي قادم على عهد من وحدة المنزع ومجابهة الحياة في صفوف يجمعها نظام موحد وإن اختلفت أوضاعها في الميدان العام

وإنه ليسرني الى ما يقارب الفخر . . . أن تكون مهمتي في مصر والعراق من أمس المهمات باعداد العقلية العامة في الناشئين لهذه الحال الموموقة والتوسيد لها . . وأنعم بها من رسالة للعلم !

(كرت الصغيرة) عبد المنعم محمد خلوف